ثالثا: أهم الثورات:

2. ثورات القرن 19م:

أة. بعارسية صباح

شهدت نهاية القرن 18م بداية انهيار الحكم العثماني بالجزائر، وازدياد رقعة السخط الشعبي. لقد ترتب عن تراجع مداخيل الغزو البحري اختلالا ماليا وضغطا على الأرياف، ما سمح بنشوب ثورات أكثر تنظيما وخطورة من الثورات السابقة. والجديد في هذه الثورات هو أن زعماءها وقادتها كانوا من رجال الطرق الصوفية الذين كانوا قبل هذا التاريخ حلفاء للحكام، لهذا اتخذت هذه الثورات صفتها الشعبية الواسعة، بمؤازرة هذه الفئة الاجتماعية التي كانت تتمتع بنفوذ روحي ومادي في المجتمع الجزائري.

كان تفجر النزاعات في بداية القرن 19م بمنطقة القبايل، وخاصة مع جماعات فليسة وزواوة في جرجرة، والذين كانوا حسب العادة مصدر العساكر. وفي ناحية قسنطينة الغربية ومملكة بني عباس التي تولاها أولاد مقران، وفي عنابة خرجت الحنانشة من سلطة الجزائر. وخرج مركز عين ماضي في جنوب الجزائر بسيطرة التجانية على الحكم هناك، وأصبحت مركز إشعاع للطريقة التي هددت في نفوذها نحو الشمال بانتشار زواياها. كما ظهرت في بداية هذا القرن القوى الكبرى في منطقة وهران من حيث تشتت الحكم من الزوايا التي كانت لدرقاوة وذلك بمساعدة ملوك المغرب الأقصى.

1.2. ثورة درقاوة:

كانت ثورة "وطنية" وانتفاضة شعبية، كادت تعصف بالحكم العثماني بالجزائر. ويرى بعض المؤرخين أنها سببا من أسباب انهزام الجزائر أمام الحملة الفرنسية سنة 1830م، للصدع الذي أحدثته بين الحكام والمحكومين، وللدمار الذي خلفته. وقد ثارت هذه الطريقة منذ سنة 1783م إلى 1805م بالغرب الجزائري ثم بالشرق، مع بعض الرحمانية بمنطقة القبايل من سنة 1804م إلى سنة 1809م.

1.1.2. ثورة ابن الأحرش سنوات 1804-1807م:

هو من أصل مغربي. عاد من مصر بعد مشاركته المصريين مقاومتهم الفرنسيين خلال حملة نابليون على مصر (1798م). أقام أولا بتونس حيث حرّضه الإنكليز، الذين غمروه بالهدايا، وكذلك باي تونس. ثم دخل قسنطينة وجمع معلومات عنها لإنشاء حركة لدرقاوة تدعم حركة وهران. قاد ثورة درقاوة بالشرق الجزائري، واتصل بالمرابط المتعصب ابن بركات زعيم أولاد دراج، واستمال المعاضيد وأولاد عيا وأولاد خلوف وأولاد إبراهيم... الذين زودوه بالمقاتلين.

كما تحالف معه الزبوشي، وهو أحد ثوار درقاوة وكان مرابط ميلة. كان مركزه برجاس، وهو مقدم إخوان الرحمانية. وصلت أخبار لباي الشرق عثمان بن الباي محمد الكبير (1803-1804م) أن

الزبوشي تنبأ للناس بجوائح وكوارث بسبب الوجود العثماني، فما كان على الباي سوى سحب الإعفاء من الضرائب الذي كان للزبوشي وامتيازات أخرى. فذهب هذا لقسنطينة مطالبا باستعادة امتيازاته التي اعتبرها حقا إلهيا، لكن دون جدوى. قفل راجعا لجبال أراس حانقا.

وفي هذه الأثناء استحوذ ابن الأحرش على قلوب السكان لتوفُر عنصر الزعامة في شخصيته؛ فهو مغامر وطموح وداهية، وهو "صاحب الوقت"، وزعم أن دعوته مستجابة والنصر يتبعه حيثما توجه، وبارود عدوه لا يُضره ولا يُصيب أتباعه، بل يرجع لديهم ماء... صدّقته قبائل الناحية؛ كأولاد عيدون وبني مسلم وبني الخطاب ..."كلهم صدقوه ولدعوته أجابوه، وآل معهم بالبهتان وإظهار خوارق البحر لديهم شيئا فشيئا إلى أن توجه بهم إلى قسنطينة، قاصدا الاستيلاء عليها، وزاعما أنه مأذون بذلك، ومتى يصلها يدخلها بمجرد الدعوة". وذكر العنتري أن الشريف ابن الأحرش "جاء ومعه كل القبائل كالجراد المنتشر من كون الشريف طمّعهم بكلامه وغرّهم بخنقطرته وافترائه قائلا لهم: امشو معي إلى قسنطينة كي ندخلها فنغنموا أرزاقها ونسكنوا ديارها" (العنتري: مجاعات قسنطينة، ص 29).

دون أن ننسى استعداد السكان للثورة بسبب تصرفات بعض الحكام لسياستهم المالية المجحفة. وما ساعد ابن الأحرش على اكتساب تأييد القبائل لدعوته واستعدادها للسير معه وثقتها فيه، هو استقراره بجيجل، بمحراب سيدي الزيتوني لتفقيه الناس، وتأسيسه بعد ذلك زاوية ببني فرقان لتلقين الصبية القرآن وتعليم الطلبة مبادئ الفقه، ثم قيامه بعد ذلك بمحاربة النصارى. سلّح عدة سفن بميناء جيجل، وأرسلها لتعقب البواخر الفرنسية التي اعتادت التردد على سواحل القل وجيجل للصيد والتجارة. استولت إحدى سفنه في سنة 1803م على سفينة فرنسية تابعة لشركة القالة، وتوجه بها أتباعه إلى ناحية وادي الزهور حيث كان يقيم، ما دعّم موقفه وزاد من التفاف الناس حوله.

وعندما تفطنت حكومة الداي لخطورته أرسلت أربع سفن إلى مرسى الزيتون لتهدئة القبائل والقبض عليه، لكن إخلاص القبائل له حال دون ذلك، ما اضطر البحارة للعودة للجزائر دون طائل. زاد تهاطل الناس عليه وراح يحكي بطولاته بمصر، وتنبأ بأحداث عظيمة وقال أنه صديق الإنكليز الذين أخرجوا الفرنسيين من مصر. وجهز نفسه للجهاد لدرجة أن الحامية العثمانية بالمنطقة هربت ليلا، ثم تبعتها نوبة القل. وأصبح ابن الأحرش الحاكم الوحيد بجيجل وكلف بحمايتها الكرغلي أحمد بن درنالي، وذهب هو لمحاربة الفرنسيين بحرا في جوان 1804م. نجاحاته وعنفه وغرابته منحوه نفوذ بالمنطقة.

فتجرأ وهاجم قسنطينة، غير أن سكان المدينة ردوا الهجوم بقيادة شيخ البلد الفكون، وهرب ابن الأحرش بعد جرح في فخذه، وتناهي أخبار لأتباعه أن الباي اقترب من المدينة (كان في محلة لجمع الضرائب)، ولحقت خيالة الباي بالهاربين، وقتّلتهم لدرجة أن القبائل بقت شهرا دون أن يجرأ أحدا منها على النزول لدفن ذويه. وكتب الباي عثمان للباشا عن أحداث محاصرة قسنطينة وخروجها منتصرة من الحصار، فرد عليه الداي: "رأسك أو رأس ابن الأحرش"، فكان رأس الباي.

بعد فشل ابن الأحرش أمام أسوار قسنطينة وإصابته بجروح، بدأ الناس يشكّون في عصمته، فبدأت القبائل تنفض من حوله. لكن الأحداث تسارعت عندما هوّن مرابط بني صبيح، المدعو بغريش على الباي عثمان أمر ابن الأحرش وأنه يمكن القضاء عليه، فمنحه فرقة من الجند لمحاربته، لكن الفرقة كادت تُباد في مكان "خناق عليهم"، بعد أن اجتمع عليهم السكان، وأدرك الجنود أن المرابط كاد لهم فقتلوه. وبقوا محاصرين من طرف القبائل وصمدوا إلى أن لحق بهم عثمان باي لإنقاذهم، لكن حصانه كبى به في وادي الزهور. وحقق الزبوشي الوعد الذي قطعه بقتل الباي عندما كبى به جواده، ولم يكتف بذلك بل قطع رأس الباي، وبعثه لابن الأحرش الذي كان عند بني فرقان. أما جثة الباي فبقيت في العراء خمسة أيام إلى أن دفنتها مجموعة من أولاد عواط من عشيرة العرابة، عندما رأوا في السماء شهابا محترقا، فاعتقدوا أنه غضب من الله لما حلّ بالباي. وتقول رواية أخرى أن بعض الناس رأوا ضياء في مكان مقتله فاعتقدوا في صلاحه، وسارعوا لبناء مسجد صغير على ضريحه.

لم يستمر الزبوشي مع ابن الأحرش طويلا حيث انفصل عنه، فانهزم هذا وهرب. ما يؤكد أن الزبوشي ثار لينتقم من الباي الذي سحب منه الامتيازات، في منطقة لم تنتشر فيها الدرقاوية، وليس للإطاحة بالنظام القائم.

ارتاع الداي عندما وصله خبر مقتل عثمان باي سنة 1804م، فأرسل جيشا، وعيّن عبد الله بن إسماعيل خوجة بايا على الشرق (1804–1806م)، ولحق هذا بابن الأحرش إلى نواحي ميلة وهزمه، وشاع أنه مات. لكنه ظهر بعد أسابيع بجموع غفيرة وحاصر بجاية، ولولا تدخل آل المقراني لاحتلها. كما رفض سكان جيجل تسليم حليف ابن الأحرش، الكرغلي ابن درنالي لقايد حملة الباي الذي اكتفى بحرق سفينته.

وكان الباي طلب من أولاد مقران، أسياد مجانة، محاربة المتمردين، وأرسل قوة عثمانية لمساندتهم. قُتل ابن الأحرش سنة 1807م. وهناك رواية أخرى مفادها أن ابن الأحرش التحق بابن الشريف الدرقاوي في الغرب، وحضر معه معركة جديوية و"بقي في معيشه إلى أن اندس له من قتله من أصحابه، ويدفنه ملك المغرب بفاس". ثم ظهر شريف آخر ادعى أنه قريب ابن الأحرش، واتصل بالمرابط مولاي الشقفة من بني يدر بجيجل، وخطط هذا للاستيلاء على مدينة جيجل، لكن الشريف تذرَع أن الوقت لم يحن بعد. في حين كلف الباشا حاج علي بن خليل (1805–1809م) المرابط محمد أمقران بمهمة القضاء على الشريف الدعِي، فبعث هذا رجلين من عائلته، تعقباه وقطعا رأسه وعادا بها وبحصانه لسي أمقران، الذي احتفظ بالحصان وبعث بالرأس للباشا، الذي كافأه بالهدايا وبـ500 فرنك لكلا الرجلين.

واختُلف في ثورة ابن الأحرش؛ فمن قائل أنها ردا مغاربيا على الصعوبات التي أثارها أتباع الرحمانية بتحريض من الجزائر، ومن قائل أنها قامت بتحريض من الإنكليز الذين أرادوا خلق مصاعب أمام الداي مصطفى الذي اتبع سياسة مشايعة لفرنسا. ورأى البعض فيها انفجارا عنيفا لاستياء عام شجعه الشيوخ الدينيون الذين لعبوا دورا بارزا في قيادة العمليات العسكرية.

2.1.2. ثورة ابن الشريف سنوات 1805– 1816:

استمرت ثورة ابن الشريف الفليتي ضد بايات الغرب سنوات منذ سنة 1802م، وأحدثت خرابا في المنطقة واضطرابا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا في الإيالة. وفي هذه الثورة ألف أبو راس الناصر رسالته المفقودة "درء الشقاوة في أخبار الدرقاوة".

هو عبد القادر بن الشريف الفليتي، من قبيلة أولاد بليل (فرندة)، تنسب إليه ثورة درقاوة بالغرب. درس بزاوية القيطنة على محي الدين (توفي سنة 1833م)، والد الأمير، ثم التحق بالمغرب الأقصى واتصل بشيخ الطريقة الدرقاوية العربي الدرقاوي (توفي سنة 1823م)، بزاويته ببوبريج من بني زروال. وابن الشريف هو مقدم الدرقاوية بالجزائر.

خلال إقامته عند شيخه البوبريجي، زعم له أن العثمانيين بالجزائر كفار؛ لا يصومون ولا يصلون، ولا يقومون بأمر الدين ولا يعلمون مبادئه، ويظلمون الناس ويحتقرونهم، ويُهينون العلماء والأولياء..، وصورهم له في صورة كفار مارقين أنذال ظلمة، وطلب منه الإذن لمحاربتهم، فصدقه وأذن له في إعلان الحرب عليهم بكل الوسائل وقال له:"انصرهم والله ينصرك".

عاد للجزائر وأخذ يُجنِّد الناس، وأنشأ الزوايا بسهول غريس وجبال بني شقران، لكنه اصطدم بشيخه محي الدين (ذكر محمد بن عبد القادر أن ابن الشريف لما "عاد من فاس تكلم بحضرة شيخه محي الدين بما يوجب تأديبه شرعا فأدبه بالسياط واستتابه") حيث منطقة نفوذه ولحقته إهانات منه، فتوجه للصحراء لدى قبائل شافع والمهاجة وحميان والهضاب العليا كالأحرار. واصطدم الدرقاوي مع الباي مصطفى بن عبد الله منزالي (1802–1805م) في فرطاسة (1804م) (تقع بمعسكر، جنوب غليزان نحو تاهرت)، وانتصر ولم ينجُ الباي إلا بنثره الدراهم على الطريق فانشغل الثوار عنه بجمعها، وتمكن من التراجع لوهران، ثم تبعه الثوار وحاصروه. وفي هذه المعركة قُتل أحمد بن هطال (كاتب الباي). قال الشاعر الشعبي أبو علام بن الطيب السجراوي، في موقعة فرطاسة:

يوم ان فزعهم ابن الشريف أوجاو ذوك اتراك الكرسي دهر فاتو رهبـــة
قالوا الأجـواد على حرمنا تركـاو انعقد غاشي الأحرار(قبيلة) عقد امحبة
في فرطاسة شاو انهار واتلاقـو بالسيف أو نار المشط أو دق الحربــة
ما لهيه أو من عيطا اعقيد افناروا...

بعث الداي مستشاره علي آغا لقتال ابن الشريف، فتعرض له السكان ومنعوه ورود الماء في وادي الشلف، وكاد يهلك مع جيشه عطشا لولا تدخل شيخ العطاف الذي استجار به، ولم يتمكن من العودة للجزائر إلا بعد دفعه المال. وبعد معركة فرطاسة دخل الدرقاوي معسكر كأمير، ثم نادى القبائل للجهاد بالغرب وجمع الضرائب لحسابه.

حوصر الباي بوهران وانقطعت الطرق ووقع الغلاء في الحبوب بالمدن (5 دورو للصاع من القمح) (الدورو: عملة من الفضة، فوق الريال.)، وأصبح القمح يصل بحرا. فعزل الباشا الباي منزالي وعين بدله

محمد المقلش بن محمد الكبير (1805م–1809م)، وكانت سبقته سمعة أبيه. دخل وهران بحرا فأزال الحصار على المدينة، الذي دام ثمانية أشهر، وأجزل العطاء وجهز محلّة، ونادى مناديه أن من أتى برأس يأخذ 10 سلطانية (السلطاني: عملة من الذهب دون الدينار). فوقعت قتالات ومات خلق كثير، و"اجتمعت رؤوس بني آدم مثل الجبال" على قول الزهار. عندما تمادى الباي المقلش بالقتل، وهو ما زاد في نفوذه، تخوف الديوان وقرر التخلص منه، فأُعدم خنقا بتهمة استغلال الثورة للانتقام من شيوخ الدين، ومصادرة أموال الرعية لصالح خزانته.

استقر الأمر بعاصمة البايلك، وليس بكامله، لهذا اتبع الباي بوكابوس (1809–1813م)، الذي خلف المقلش، سياسة دموية تجاه أنصار درقاوة. ذكر الزياني أن الباي بوكابوس اشتغل خلال سنوات حكمه "بمطاردة الدرقاوي وقطع آثاره ومعالمه، حتى أن من حسد أحدا وشى عنده واتهمه بمحبة الدرقاوي فإنه ينتقم منه فورا، وصار مهما ظهر بأحد من درقاوة بادر للانتقام منه بأي نوع شاءه، ولا يقبل فيه شفاعة شفيع. وابتدع قتلا لم يبتدعه أحد من الملوك قبله؛ فمنهم من يأمر بإخراجه للسوق ودق أعضائه حيا شيئا فشيئا بالمعاول إلى أن يموت بانفضاع، ومنهم من يأمر باقتلاع عينيه ويتركه أعمى من حينه، ومنهم من يأمر بذبحه أو بقطع رأسه أو بخنقه أو بقره أو شنقه".

كما ثار صهر الدرقاوي بوترفاس بتأييد قبيلة التزارة، وهزمهم الباي رغم هلاك معظم جيشه بسبب تساقط الثلوج. وأضاف كور Cour أن الباي مال لسلطان المغرب الأقصى مولاي سليمان، وانقلب على الباشا الذي تمكن منه بمحلة من الجزائر، وأعدمه بعد أن سلخ رأسه حيا.

واختلفت الروايات حول نهاية ابن الشريف، فمن قائل أن الباي المقلش صاهر قبيلة الحشم المنشقة عن العثمانيين، فخذلت ابن الشريف الذي فر بأهله إلى تلمسان ثم لجبال بني زناسن بالمغرب الأقصى، حيث أقام حتى وفاته. وفي رواية أخرى، أنه خلال أربع سنوات من القتال الدامي، تمكن المقلش من قتل ابن الشريف بعد تعذيبه. وفي رواية ثالثة قضى بوكابوس باي على ابن الشريف نهائيا سنة 1809م. وذكر كور أن الباي طارد الدرقاوي حتى اليعقوبية، أين مال له مرابطيها، ثم تتبعه للصحراء حيث رفضت القبائل استقباله خوفا من الباي، فلجأ لعين ماضي، لكن السكان لفضوه فعاد لبني زناسن.

لقد هزت هذه الثورة حكم العثمانيين بالجزائر وكادت تعصف بهم، لولا السياسة التي اتبعها الحكام في التفريق بين الأنصار والأتباع من أكبر القبائل. كذلك ابن الشريف أقام صرحه على كذبة أن الحكام كفار يجوز قتالهم، لكن عندما انتبه شيخه العربي الدرقاوي لكذبه تخلى عنه. ففي رواية أن العربي الدرقاوي، شيخ الطريقة، بعد حضوره لوهران خلال الحصار، أدرك أن مقدمه تلاعب به وأنه استدعاه ليطلب مساعدة سلطان المغرب الأقصى، وتبرأ منه بعد أن اكتشف كذبه وتزويره ضد العثمانيين؛ مثل أنهم كفار ولا يصومون، بينما شهد وسمع أذان الفجر وشاهد الناس يتوجهون للصلاة، فعاد بعد أن استرجع "الحْجاب" منه (أعطاه إياه عندما استأذنه لقتال العثمانيين) وتبرأ منه، ومذ ذاك لم يعرف ابن الشريف الدرقاوي انتصارا واحدا.

ويرى فيلالي مختار أن العربي الدرقاوي، وتبعا لمبادئ الطريقة التي تدعو للسلم والابتعاد عن الاضطرابات والمشاركة في الثورات ضد الحكام، بعث سنة 1805م الرسائل والمبعوثين لخليفته ابن الشريف ليرده عن موقفه لكنه لم يستمع له. أما عبد الرحمان الجيلالي في تاريخ الجزائر، جزء 3، فيرى أن العربي الدرقاوي بعد أن جاء للجزائر، وأطلعه ابن الشريف على ما لحق أتباعه من الحيف والإجحاف، انقلب وشجّع ابن الشريف، وأزّم العلاقات بين الجزائر والمغرب الأقصى، خاصة وأن السلطان المغربي كان بعثه، بطلب من الجزائر، ليرد ابن الشريف عن ما كان عليه. لقد كانت ثورة ابن الشريف نابعة من الواقع الجزائري، وكان هدفها هو تغيير الأوضاع السائدة في البلاد والقضاء على سلطة البايلك.

2.2. ثورات منطقة جرجرة سنوات 1804م، 1810م، 1823م:

تداخلت أحداث هذه الثورة مع ثورة ابن الأحرش بعد مقتل عثمان باي سنة 1804م. وعندما كانت قسنطينة محاصرة من طرف الجيش التونسي، وبعد هروب حسين باي الشرق بن صالح باي (1806-1808م) من القوات التونسية سنة 1807م، أرسل الداي جيشا لقسنطينة لكن اعترضه أهل جبال فليسة الثائرين وقطعوا عليه الطريق، ما اضطر آغا الصبايحية للتفاوض مع أهل فليسة. وحدث الاتفاق وانظم أهل فليسة للجيش، وساروا جميعا لفك الحصار على قسنطينة. كما ثارت فليسة بين سنوات 1810م و1815م مع قبائل البابور والتيطري.

وكانت نتيجة ثورة فليسة سنة 1815م رضوخها قسرا لجنود الداي، وألزمها هذا الأخير بمغرم سنوي يبلغ 900 فرنكا (500 بوجو) بعملة ذلك العصر، وذلك نهاية سنة 1816م، باتفاق زعيمها الحاج محمد بن زعمون مع "الترك" الذين خرجوا في حملة لمنطقة القبايل. وهو اتفاق سيدوم أكثر من سابقيه.

كما ثارت قشتولة وبني صدقة (برج بوغني) سنة 1818م، حيث استسلمت الحامية العثمانية لبرج بوغني الذي هُدم بعد سبعة أيام من الحصار. وحمى مرابطو المنطقة أفراد الحامية. وأعاد يحي آغا (قتل سنة 1828م) بناء البرج سنة 1823م.

وفي سنة 1823م، ثار سكان المناطق المحيطة ببجاية، واحتل بنو عباس البيبان، ولم يتمكن القايد المحلي، ابن كانون من إجلائهم منها إلا بصعوبة. لكن الثورة استمرت في وادي الساحل، وحاول يحي آغا أن يلقن بني عباس درسا قاسيا، فأضرم النار في كل شيء اعترض طريقه إلى قلعة بني عباس.

لكن هذا لم يمنع بني عباس من الثورة مجددا سنة 1826م. ووصل ثوار بني عباس لبجاية، وقتلوا قائد المدينة ورجاله. استفاد يحي آغا من المرابط ابن علي الشريف، الذي أعطاه بغال ومساعدات. لم تتوقف الثورة فقرر يحي آغا الذهاب وحده لزعيم الثوار وطلب منه وقف القتال بطريقة راقية.

3.2. ثورة بوسعادة وفليسة سنة 1814م:

- **ثورة فليسة:** انظر أعلاه ثورات منطقة جرجرة.

- أحداث بوسعادة وأولاد ماضي:

حاول جعفر باي التيطري (1813م-1815م)، نهاية سنة 1813م، إخضاع عصيان أهل الأغواط، الذي امتد بين سطيف والمدية وبوسعادة وناحيتها فأخفق، بسبب تحصُن سكان الأغواط داخل مدينتهم، بعد أن أسروا جماعة من العثمانيين كانوا دعوهم للضيفة. هددوا الباي بقتل الجماعة إذا لم يُرجع الإبل التي أخذها. في النهاية قبِل الباي واكتفى بحق "ضيفة الباي" (10 آلاف بوجو)، وعاد للمدية.

وفي حملته على أولاد ماضي بالحضنة، انهزم وعاد مدحورا لعاصمته، بعد أن خسر 22 من الزبنطوط (جنود) الذين خرجوا معه من أصل الخمسين، وهروب من بقي حيا للمدية. فانتشرت الثورة من واد الساحل لبوسعادة ومن برج بوعريريج للمدية، ما شجع عمر آغا على انتزاع أمر من الداي لقتل نعمان باي الشرق (1811-1814م) لفشله في قمع الثوار. فاستُدعي نعمان باي لمحاربة الثوار بالحضنة، وخرج عمر آغا من العاصمة بقوة عسكرية متجها لبوسعادة لنفس الغرض، وتمكن من المرور على مضيق بني عائشة ويسر، أين تعرضت مقدمة هذه القوة، التي كانت بقيادة محمد بن كانون، لهجوم من فليسة، وبعد مقاومة مميتة تمكنت المقدمة من اللجوء لبرج منايل، حيث تمكن بن كانون من جمع قوة جديدة ردّ بها فليسة، ثم حضر عمر آغا وحلّ الموقف، وتمكن من عبور المنطقة من بني خلفون.

التقت فرقة الشرق وفرقة العاصمة في بوسعادة، وقاتلت كل منها على حِدة، وقد عطّل الثلج الأمر. بعد انتهاء المعارك أمر الآغا بقتل الباي، ودفن بزاوية سيدي بوجلمين بمسيلة سنة 1814م، وخلفه تشاكر الباي (1814م-1818م)، وهو الذي دسّ على نعمان باي عند الداي ما تسبب في قتله، وألبسه الآغا القفطان في مسيلة. ولم تنطفئ غمار هذه الثورة حتى تضافرت عليها قوات مدينة الجزائر ووهران وشارك فيها الداي بنفسه.

4.2. الثورة التجانية بعين ماضي سنوات 1816-1827م:

كان أحمد التجاني قد أسس طريقته سنة 1781م بعين ماضي. كان عابدا، صاحب طريق (صوفي) وله مريدون وأتباع. ولما شاع أمره، في وطنه عين ماضي، تهاطل عليه المسافرون بهداياهم. بعد استقرار ببوسمغون؛ بعد قلق وتجوال، حسب تعبير أبو القاسم سعد الله (حملة محمد الكبير باي على عين ماضي سنة 1785م، وفرضه ضريبة على المدينة، ثم حملة ابنه عثمان سنة 1787م على نفس المدينة)، هرب التجاني إلى بوسمغون واستقر بها، واكتفى الباي بفرض ضريبة قيمتها 17000 بوجو. خاف التجاني مكائد السلطة الزمنية، بعد ملاحقة بايات وهران له وتنغيصهم عليه، فاتجه بأهله إلى فاس سنة 1796م، ورحب به السلطان سليمان، وأحضره مجلسه وأعطاه دارا كبيرة وخصص له راتبا. واشتكى التجاني من "جور الترك وظلمهم"، وظلّ هناك إلى وفاته سنة 1815م. عاد ابنا التجاني، محمد الكبير ومحمد الصغير، للجزائر بعد وفاة والدهما.

وبعد القضاء على الثورة الدرقاوية، لم يعد للدرقاويين أي نفوذ في الجزائر، فاستغل سلطان المغرب الأقصى مولاي عبد الرحمان (1822– 1859م) أصحاب الطريقة التجانية، ونتيجة لتحريضهم أخذت قبائل بابور وجرجرة تتمرد باستمرار، فاستخدم الحكام العنف حتى سنة 1826م. خرج يحي آغا لمحاربة التجاني في شتاء 1818–1819م، وشارك في الحملة باي الغرب، لكن دون طائل. ذلك أن الطريقة التجانية عرفت ازدهارا بعد عودة ولدّي الشيخ أحمد التجاني إلى عين ماضي، غير أن بعض المنشقين، الذين كان طردهم أحمد التجاني من عين ماضي إلى جبل عمور، جنّدوا مقاتلين من العثمانيين وهاجموا المدينة، وعندما فشلوا طلبوا دعم حسن باي وهران (1817–1831م) الذي حاصر عين ماضي سنة 1820م، فاضطرت الواحة لدفع الأموال (100 ألف بوجو) مقابل تخليه عنها، فاستلم الباي الأموال ثم قصفها مدة 36 ساعة، دون أن يتمكن من اقتحامها فانصرف عنها. وفي سنة 1822م حاول باي التيطري مصطفى بومزراق (1819–1830م) اقتحام الواحة دون جدوى، فتحول التجانيون من الدفاع إلى الهجوم.

– محمد الكبير التجاني (1827م):

إن خلافة محمد الكبير التجاني لوالده بعد وفاته، وعودته هو وأخيه محمد الصغير وباقي أفراد الأسرة إلى عين ماضي، لمواصلة رسالة أبيهم الدينية والاجتماعية بإشارة منه، هو ما جعل حكام الجزائر غير مرتاحين لهم، ومؤكد أن إقامتهم بالمغرب الأقصى لها دخل في ذلك، يُضاف إلى ذلك كثرة الوشاة والسعاة. وكان الغرب الوهراني ما زال متأثرا بأحداث ثورة درقاوة، وصار البايات يتخوفون من هذه العائلة، لذلك قاد الباي حسن حملة عسكرية ثانية على عين ماضي سنة 1825م، واتهم التجانيين بالإعداد للثورة على غرار ابن الشريف الدرقاوي. حاصر عين ماضي شهرا، ثم أبرم صلحا مع الشيخ محمد بن أحمد التجاني على أن يلتزم بدفع 20 ألف ريال نقدا للبايلك، و500 ريال كل سنة، فرفع الباي الحصار وعاد لوهران.

وكان الحكام يرهبون سطوة محمد الكبير، فبعد عودته من الحج سنة 1824م، وبعد ما لحقه من الباي حسن، ظهر له مقاتلة العثمانيين، فدعا الناس لطاعته والخروج على السلطة الزمنية، فوافقه أهل النواحي وتحالف مع حشم غريس "لأنهم أصحاب فتن، فكلما قام ثائر إلا وكانوا أنصاره"، حسب الزهار.

وكان استغاث أولاد هاشم بمحمد الكبير لمقتل 11 من نبلائهم على يد البايلك، وتحالفوا معه للثورة على الباي، لكن الباي حسن تمكن من شراء أهم شيوخ القبيلة، فتخلوا عن التجاني خلال المعركة، وتراجع الحشم ومن رافقهم عند لقاء الفريقين سنة 1827م، وبقي التجاني مع 300 من أعراب زكور فقط، ربطوا أنفسهم (حتى لا يهرب أحد منهم) وقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم. وتمكن حسن باي من محمد الكبير التجاني بعد هذه الخيانة في سهل غريس قرب معسكر، المدينة التي أراد محمد الكبير التجاني نزعها من الإدارة العثمانية، ودفنت جثته هناك، أما رأسه فبعثها الباي إلى الجزائر وعُلِّقت بباب جديد. و"لكثرة ما

كانوا يخافونه أرسلوا سيفه إلى السلطان العثماني محمود خان (1785–1839م). بعد ذلك توجه نشاط التجانية نحو الصحراء والسودان.

– محمد الصغير التجاني (1851م):

كان أميل للهدوء، وبقي بعين ماضي بعيدا عن السياسة، واكتفى بالمصالح الدينية للطريقة.

5.2. ثورات النمامشة والأوراس سنوات 1818–1823م:

خرج تشاكر باي الشرق في سنة 1816م في حملة ضد فرعي المقارنة؛ بن قندوز وبورنان، منافسي الفرع الثالث حليف الباي وهم أولاد الحاج، فهزموه قرب أولاد ماضي واستولوا على أمتعته. كما انهزم أمام أولاد سيدي عبيد من النمامشة، عندما هاجمهم دون سبب، حتى لا يعود دون غنائم، فأخذ ماشيتهم وإبلهم. لكن النمامشة كانوا أكثر استعدادا منه فهزموه واضطر لقبول شروطهم التي كان على رأسها الخروج من أرضهم للتو واللحظة. واضطر لإعادة ما تبقى له من غنائم.

وكان النمامشة تمردوا سنة 1822م، في عهد إبراهيم بن علي الكريتلي (تولى لمدة خمسة أشهر فقط سنة 1822م) ورفضوا دفع الضرائب، فأخذ لهم الباي 40 ألف رأس غنم، وتمكن من إخضاعهم. لكنهم عادوا للثورة من جديد سنة 1823م. وهي السنة التي ثار فيها أولاد سيدي علي، فهاجم خليفة الباي القبيلة في محلة لرفضها دفع الضريبة، لكن الثوار هزموه وقتلوه مع عدد من الجيش. وفي سنة 1830م رفضت الحنانشة، النمامشة والحراكتة إرسال قوات لمدينة الجزائر مع أحمد باي. وفي الجنوب أعلن شيخ العرب فرحات بن السعيد استقلاله منذ مدة، كما أن فرع من المقرانيين فعل نفس الأمر، وكذلك شيوخ إقطاعيين آخرين.

قائمة المصادر والمراجع:

إضافة لقائمة المصادر والمراجع في المحاضرات الثلاث السابقة:

العنتري صالح: مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

بوعزيز يحي: الدور الديني والسياسي للطرق الصوفية بالجزائر، ضمن موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر، جزء 1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004

الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي بوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

سعيدوني: "ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية"، في الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة، الجزائر، السنة 13، العدد 78، ديسمبر 1983.

عباد صالح: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، الطبعة 2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

فيلالي مختار: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن القرافيكي للطباعة والنشر، باتنة، د.ت.

المدني أحمد توفيق: محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

المزاري الآغا بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، جزء 1، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

Delpech Adrien : « Résumé historique sur le soulèvement des Derkaoua de la province d'Oran d'après la chronique d'El-Mossellem Ben Med Bach Deftar du bey Hassen de 1800 a 1813 (Hég 1215 a 1228), in Revue Africaine, 1874, O.P.U., Alger, 1985.

Féraud Charles: « Les chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la province de Constantine », in Revue Africaine, 1869, O.P.U, Alger, 1985.

Feraud C. : « Zebouchi et Osman bey », in Revue. Africaine, 1862, O.P.U., Alger, 1985

Larement Ricardo Rene: Islam and the politics of resistance in Algeria 1783-1992, Africa World Press, Asmara, Eretria, 2000.

Rinn L.: Marabouts et khouans : Étude sur l’islam en Algérie, Adolphe Jourdan Libraire- Éditeur, Alger, 1884.